١٦- الشعر العربى والفن الإسلامى

لا يسمح مجال هذه الصحائف القليلة بدراسة العلاقة بين الشعر العربى والفن الإسلامى بصفة عامة، ويستطيع القارئ المعنىُّ بهذه الناحية أن يظفر بطلْبته منها فى محاضرة للأستاذ ماسينيون ألقاها فى (الكوليج دى فرانس)، ونشرت عام ١٩٢١م فى صحيفة (سوريا) Syria، وقد ترجمتُها إلى الإسبانية ونشرتُها فى مجلة (الغرب) La Revista de Occidente (ديسمبر ١٩٣٢م). ويرى هذا العلاَّمة المستشرق الفرنسى أن الشعر العربى أدلُّ على الروح الفنى الإسلامى من الفنون الإسلامية، إذ إن الشاعر العربى إذا تكلم عن الحاضر كان هدفه تصويره فى صورة غير طبيعية أو بعيدة عن الواقع، واجتهد فى إعطائه صورة جامدة متحجرة، والتشبيه عندهم يهبط عادة بالأشياء عن درجاتها: يشبِّهون الإنسان بالحيوان، والحيوان بالزهر، والزهر بالأحجار الكريمة. وأما إذا تكلم الشاعر العربى عن الماضى، فإن همه لا ينصرف فى العادة إلى إحياء اللحظات الماضية وتجديد الشعور بها كما يفعل الشاعر الغربى، وإنما يفعل العكس تماماً، فيتناول الذكرى على أنها ذكرى ولا زيادة، ويتحدث عنها كأنها أحلام وخيالات وغموض وأوهام، وينشئ من بنات أفكاره صوراً «أربسكية» بارعة، ولكنها هشة سريعة التلاشى، وهذه هى فكرة الإسلام عن العالم وما فيه: كله ذاهب زائل لا يستحق عناء الوقوف عنده.

ويختم ماسينيون حديثه فى هذا الصدد بكلام عن الفن الإسلامى يقول فيه: «إن الفكرة الموجِّهة للفن الإسلامى ليست تأليه الصور وإنما الاسترسال إلى ما وراءها والوصول إلى هذا الذى يبث فيها الروح، كما يبعث ضوء «الفانوس

السحرى» الحياة فى الصور، أو يحرِّكها كما تتحرك الأشياء فى «خيال الظل». إن الفن الإسلامى يتجه قدمًا نحو «الواحد الذى لا يزول»، وكل شواهد القبور الإسلامية تحمل عبارة تصوِّر لنا ذلك بأجلى بيان، هى: «هو الباقى».

وأحسب أن فى هذا كفاية لتقديم هذا المجموع من الأشعار الأندلسية. وجُلُّها قصائد يصدق عنها قول هوراثيو كُوند نورونيا Horacio el Conde de Norona : إنها «أغانٍ لم تُسمع من قبل Carmina non prius audita» وذلك فى المقدمة التى ساقها بين يدى مختاراته التى سمَّاها «أشعار آسيوية Poesias Asiáticas»، وتلك هى ميزتها الوحيدة، وذلك هو موضع الخطورة فى الإقدام على ترجمتها (إلى الإسبانية). ولكننى قمت بهذا العمل راضيًا إذ إنه أعاد إلى نفسى ذكرى الأيام الحلوة التى شرعت فيها فى نقل هذه الأشعار إلى الإسبانية: فى ساعات الأصيل فى القاهرة والجيزة، أيام كنت أرفع بصرى عن الكتاب لأسرح به فى مياه النيل التى يصدق فيها قول أبى الصلت أمية الدانى:

والنيلُ تحتَ الرياحِ مضطربٌ كَصَارمٍ فى يمينِ مرتعشِ[1]

وكان الفراغ من كتابتها فى نوفمبرعام ١٩٢٩م، ونُقِّحَتْ وزيدتْ فى ديسمبر عام ١٩٣٩م.

* * *

(١) المقرى: «نفح»، جـ٢، ص ٢١٨.